من أخبار المسافرين (٧)

أشعر الناس

سافر عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الشاعر الأموي المشهور، سافر إلى بغداد، فاجتمع الناس إليه، فكتبوا شعره وشعر أبيه، وعرضوا عليه الأشعار. فقال بعضهم: هاهُنا شاعر يزعم قوم أنه أشعر الناس طُرّاً، ويزعم غيرهم ضد ذلك ـ يقصدون أباتمام ـ. فقال: أنشدوني من شعره. فأنشدوه:

غَدَتْ تستجيرُالدمعَ خوفَ نَوَى غَدِ ... وعـاد قَتـاداً عنـدهـا كـلُّ مَـرقَـدِ
وأنقذها من غَمرة الموت أنَّهُ ... صُـدودُ فـراقٍ لا صـدودُ تَعَمُّـدِ
فأجرَى لها الإشفاقُ دمعاً مُورَدًّا ... من الدم يجري فوق خد مُوَرَّدِ
هِـيَ البـدرُ يغنيهـا تـودُّدُ وجهِهـا ... إلى كلِّ من لاقتْ وإن لـم تَوَدَّدِ

ثم قطع المنشد. فقال له عُمارة: زدنا من هذا. فوصل نشيدَه وقال:

ولكنني لم أحوِ وَفْراً مُجَمَّعا ... ففزْتُ به إلاَّ بَشمْل مُبَدَّدِ
ولم تُعْطني الأيام نوماً مُسَكِّنا ... أَلَـذُّ بـه إلاَّ بنـوم مُشَـرَّدِ

فقال عُمارة: لله دَرُّه! لقد تقدم في هذا المعنى على كل من سبقه إليه، على كثرة القول فيه، حتى لقد حَبَّب إليَّ الاغتراب، هِيه ـ يعني زِدْ ـ فأنشده:

وطولُ مُقام المرء في الحيّ مُخْلقٌ ... لـديبـاجتيـه فـاغتـربْ تتجـدَّدِ
فإني رأيتُ الشمسَ زيدت محبَّةً ... إلى الناسِ أنْ ليستْ عليهمْ بسرْمَدِ

فقال عُمارة: كَمُلَ والله، لئن كان الشعر بجودة اللفظ، وحسن المعاني واطراد المراد، واتساق الكلام، فإن صاحبكم هذا أشعر الناس.

المبرّد يحكم بين الشعراء

قال محمد بن عبدالله الكاتب: كنت يوماً عند المبرّد فأنشدنا قول الشاعر:

جسْمي مَعِي غَيْرَ أنَّ الرُّوحَ عنْدَكُمُ فَالجِسْمُ في غُرْبَةٍ والرُّوح في وَطَنِ
فَلْيَعْجَبِ النَّاسُ مِنِّي أَنَّ لِي بَدَناً لاَ رُوحَ فِيهِ وَلِي رُوحٌ بِلاَ بَدَنِ

ثم قال: ما أظنُّ الشعراء قالوا أحسن من هذا. قلت: ولا قَوْلَ الأخْرَقِ؟ قال: هيه ـ يعني زدْ ـ قلتُ الذي يقولُ:

فارَقْتُكُمْ وَحَييتُ بَعْدكُمُ مَا هَكَذَا كَانَ الَّذي يَجبُ
فالآن أَلْقَى النَّاسَ مُعْتَذِراً من أنْ أعيشَ وأنتُمُ غُيُبُ

قال: ولا هذا. قلتُ: ولا قولَ خالدٍ الكاتب؟

روحَانِ لي رُوحٌ تَضَمَّنَهَا بلدٌ وأُخْرَى حازَهَا بَلَدُ
وأظُنُّ غَائِبَتي كَشَاهِدَتِي بِمَكَانِهَا تَجدُ الَّذي أجدُ

قال: ولا هذا. قلتُ: أنت إذا هويتَ شيئاً ملتْ إليه ولم تعدل إلى غيره، قال: لا ولكنَّه الحقُّ، فأتيتُ ثعلباً ـ من علماء الأدب واللغة ـ فأخبرتُهُ، فقال ثعلبٌ: ألاَ أنشدتَهُ:

غابُوا فصار الجسمُ من بعدِهِمْ ما تَنْظُرُ العَيْنُ لَهُ فيَّا
بأيِّ وَجْهٍ أتَلَقَّاهُمُ إذَا رَأَوْنِي بَعْدَهُمْ حَيَّا؟
ياخَجْلَتِي مِنْهُمْ وَمِنْ قَوْلِهِمْ مَا ضَرَّكَ الفَقْدُ لَنَا شَيَّا

قال: ثم ذهبت إلى إبراهيم الحربي فأخبرته فقال: ألا أنشدته:

ياحَيَائِي ممَّن أُحبُّ إذَا مَا قُلْتُ بعدَ الفِرَاقِ إنِّي حَيِيتُ

لوْ صَدَقْتُ الهَوَى حَبِيباً على الصِّحَّـ ـــةِ لَمَّـا نَـأَى لكُنْـتُ أَمُـوتُ

قال: فرجعت إلى المبرِّد فقال: أستغفر الله إلاَّ هذين البيتين، يعني بيتي إبراهيم الحربي.

السياحة في القرآن

معنى السياحة: كلمة سياحة كلمة عربية معروفة عندالعرب منذ القِدم، وهي تدل على هذا المعنى المتعارف عليه اليوم من المسير في الأرض والتنقل في أرجائها، وهي مأخوذة من ساح الماء، بمعنى جرى على وجه الأرض، وقد تحدث ابن منظور في لسان العرب عن هذه الكلمة فقال: سيح: السيحُ الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، وفي التهذيب: الماء الظاهر على وجه الأرض، وجمعه سيُوح.

وقد ساح يسيح سيحاً وسيحانًا إذا جرى على وجه الأرض، وماءٌ سيحٌ وغيْلٌ إذا جرى على وجه الأرض، وجمع أسياح.

وأساح فلان نهرًا إذا أجراه؛ قال الفرزدق:

وكم للمسلمين أسحتُ بحري بإذن الله من نهر ونهر

وفي حديث الزكاة: «**ما سُقي بالسيح ففيه العُشر**» أي الماء الجاري.

وفي حديث البراء ـ رضي الله عنه ـ في صفة بئر: فلقد أُخرج أحدنا بثوب مخافة الغرق، ثم ساحت ـ أي جرى ماؤها وفاضت ـ.

والسياحة: الذهاب في الأرض للعبادة والترهب؛ وساح في الأرض يسيح سياحة وسيوحاً وسيحاً وسيحاناً أي: ذهب.

وفي الحديث: «**لا سياحة في الإسلام**»أراد بالسياحة مفارقة الأمصار، والذهاب في الأرض، وأصله من سيح الماء الجاري.

قال ابن الأثير: أراد مفارقة الأمصار، وسُكْنى البراري، وترك

شهود الجمعة والجماعات؛ قال: وقيل أراد الذين يسعون في الأرض بالشر والنميمة والإفساد بين النَّاس؛ وقد ساح، ومنه المسيحُ بن مريم عليه السلام في بعض الأقاويل: كان يذهب في الأرض، فأينما أدركه اللَّيل صفَّ قدميه وصلَّى حتى الصباح؛ فإذا كان كذٰلك فهو مفعول بمعنى فاعل.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ وقال تعالى ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ السائحون والساحات: الصائمون.

قال الزجاج: السائحون في قول أهل التفسير واللغة جميعًا الصائمون، قال: ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض؛ وقيل: إنَّهم الذي يديمون الصيام، وهو ما في الكتب الأول؛ وقيل: إنما قيل للصائم سائح لأنَّ الذي يسيح متعبدًا يسيح ولا زاد معه، إنما يطعم إذا وجد الزاد، والصائم لا يطعم أيضًا فلشبهه به سمي سائحاً.

وسئل ابن عباس وابن مسعود عن السائحين فقال: هم الصائمون [لسان العرب ٢/ ٤٩٢].

السياحة في القرآن:

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن في ثلاثة مواطن، اثنان منها في سورة التوبة، والثالث في سورة التحريم.

أما في سورة التوبة فقد وردت في الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ ومعنى الآية هنا خطاب للمشركين بأن يسيروا في الأرض آمنين خائفين لمدة أربعة أشهر، ثم بعد ذٰلك إما أن يؤمنوا، وإما أن يخرجوا من الجزيرة، وإما أن يُعْمَل فيهم السيف ويقتلوا؛ لأنَّ الأرض

أصبحت دار سلم وإسلام، وليس فيها للشرك وأهله مكان، مع تنبيههم إلى أمرين:

الأول: أنهم مهما ساروا وتنقلوا في جنبات الأرض فإنهم غير معجزي الله تعالى، وغير مفلتين من قبضته.

والثاني: أنَّ الخزي والذلَّة والصغار هي مآل الكافرين، فالأولى لهم أن يسلكوا طريق العزَّة والإيمان.

وهٰذه الآية تأتي بعد إعلان البراءة من المشركين في يوم الحج الأكبر، وذٰلك في السنة السابقة للسنة التي حجَّ فيها، حيث بعث أبابكر أميرًا على الحج، وأرسل بعده علي بن أبي طالب وبعض الصحابة، وذٰلك في سنة تسع ليقرؤوا على النَّاس آيات البراءة: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ فقرؤوا على النَّاس ذٰلك، وبيَّنوا لهم أنَّ من كان له مع المسلمين عهد مطلق غير محدد بشهر أو سنة مثلاً، أو كان له عهد أقل من أربعة أشهر، أو كان له عهد فوق أربعة أشهر، تبدأ من يوم النَّحر، فإن أسلموا بعدها فهو خير لهم، وإن خرجوا من الجزيرة فلهم ذٰلك، وإن بقوا كافرين فسوف يؤخذون ويقتلون حيثما وجدوا، فلا بقاء لهم في دار الإسلام.

ووردت كلمة السياحة في سورة التوبة أيضًا في الآية الثانية عشرة بعد المائة في قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

ووردت في سورة التحريم بالمعنى نفسه، وذلك في وصف المؤمنات، حيث قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

أقوال المفسرين في معنى السياحة:

اختلف المفسرون اختلافًا كثيرًا في تفسير كلمة السياحة في القرآن الكريم، وهو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، ومن العجيب أنَّ أغلبهم فسروا معنى السائحين والسائحات؛ بالصائمين والصائمات، وهم في ذلك يعتمدون على تفسير عدد من علماء الصحابة بهذاالمعنى، مثل أبي هريرة، وابن عباس، وابن مسعود، وعائشة ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ وقد رُويت بعض الأحاديث عن النَّبي ﷺ لكنه لم يصح منها شيء، مثل قوله: «**سياحة هذه الأمة الصيام**»، وقوله: ﴿السائحون﴾ هم الصائمون.

وقد فسر الكلمة بهذا المعنى عدد من التابعين، وكذلك ساد هذا المعنى عند أغلب المفسرين، مع أنهم أوردوا الاحتمالات الأخرى.

ومن المفسرين من قال بأنَّ المقصود بالسياحة: الجهاد؛ اعتمادًا على ما روي عن النَّبي ﷺ أنَّ رجلاً جاءه فقال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال له: «**سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله**». [أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذَّهبي ٣/ ٧٣]

ومن المفسرين من قال: المراد بالسياحة والسائحين: المهاجرون، ومنهم من قال: طلبة العلم، ومنهم من قال: بل هي بمعناها المفهوم من اللَّفظ مباشرة، وهم السائرون في الكون، المتأملون في خلق الله، المتفكرون في دلائل عظمته وتوحيده.

الرأي المختار:

ليس لنا أن نعترض أو نخالف كلام الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم، في تفسيرهم للسياحة بمعنى الصوم، ولكن الذي يفهم من قولهم هذا أنهم يذكرون الصوم على أنه نوع من أنواع السياحة أو بديل لها إذا لم تتيسر؛ لأنَّ بين الصوم والسياحة وجوه شبهٍ كثيرة سنذكرها لاحقًا، فهم إذًا لا يريدون قصر معنى السياحة على الصوم؛ لأنَّ ذٰلك لا يتفق، ولماذا يصرف اللَّفظ عن حقيقته دون سبب معقول من إرادة المعنى الأصلي، فالظاهر أنَّ القرآن يريد بالسياحة معناها العام والله تعالى أعلم وأحكم. وذٰلك لأمور عدة؛ منها:

استخدام القرآن نفسه للكلمة بمعنى السير في الأرض بحرية وأمان، فقوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لا يمكن بحال من الأحوال أن يقال إنَّها هنا بمعنى الصيام فما الذي جعلها هنا بمعنى السير وهناك بمعنى الصيام، ثمَّ إنَّ الصوم ورد الحديث عنه صراحة في آيات كثيرة، ولو كان مقصودًا هنا لنصَّ عليه مباشرة، والله أعلم.

ثمَّ إنَّ المعنى اللغوي للكلمة يوحي بالمعنى الاصطلاحي لها، فهي ساح الماء، أو ساح النهر؛ أي: سال ومشى في الأرض، والمعنى الاصطلاحي مأخوذ من هذا المعنى، وليس بين الصيام والمعنى اللغوي للكلمة مناسبة، إلاَّ عن طريق التشبيه والمجاز كما سيأتي.

ثم إنَّ أغلب ا لمفسرين إن لم يكونوا جميعًا قد ذكروا الاحتمالات الأخرى للكلمة، وأهمها السير في الأرض لأغراض سامية، ومن أولـئك:

الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ فهو بعد أن ذكر تفسير الكلمة بالصوم

قال: «فهـٰذا أصح الأقوال وأشهرها، وجاء ما يدل على أنَّ السياحة الجهاد».

وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال عبدالرَّحمن بن زيد ابن أسلم: هم المهاجرون. [تفسير بن كثير ٤/ ١١٢].

وقال الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن، وقوله ﴿السائحون﴾ أي: الصائمون، وقال: ﴿سائحات﴾: أي صائمات، ثم قال: وقيل: السائحون هم الذين يتحرون ما اقتضاه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ بل لقد ذكر السياحة بهذا المعنى في موطن آخر، حيث يقول: وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ فقد قيل: حث على السياحة في الأرض بالجسم، وقيل: حث على إجالة الفكر ومراعاة أحواله. [مفردات القرآن ص ٤٣١ ـ ٤٣٣].

وقال الزمخشري: ﴿والسائحون﴾: الصائمون، شبهوا بذوي السياحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم، وقيل: هم طلبة العلم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه. [٢/ ٢١٦].

وقال الشيخ أبوبكر الجزائري في تفسير: ﴿السائحون﴾: أي: الصائمون، والخارجون في سبيل الله لطلب علم أو تعليمه أو جهاد لأعدائه.

فهـٰذه الأقوال بمجموعها قد ذكرت المعاني الأخرى لكلمة السياحة، ولم تقصرها على الصيام، لذٰلك فإنَّ الذي تطمئن إليه النفس أنَّ المراد بالسائحين والسائحات في القرآن الكريم هو المعنى اللغوي الحقيقي للكلمة، وهو يضفي معنى جديدًا في الآية الواردة في وصف المؤمنين والمؤمنات في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ﴾؛

لأنَّ الصائمين يدخلون ضمنًا في وصف العبَّاد والحامدين، ومن فسرها بالصيام فلعله يقصد بذٰلك أنَّ الصيام هو نوع من أنواع السياحة، وقد ألمح الزمخشري إلى ذٰلك بقوله: الصائمون شبهوا بذوي السياحة في الأرض، أي أنَّ الكلمة لا تعني الصائمين حقيقة، وإنما على سبيل المجاز والتشبيه.

وقد ذكرنا أنَّ بين الصيام والسياحة وجوه شبه كثيرة، ومن ذٰلك التشابه في المشقة. والتشابه في ترقب قطع المسافة، والظفر بالمطلوب، والتشابه في الحرمان من كثير من الشهوات، وأهم من ذٰلك كله التشابه بينهما في أنَّ كلاً منهما سفر؛ وأمارات الوحدانية، مما يرتقي بالإنسان في مدارج التقوى والخشوع والخضوع والإيمان والتسليم، فكذٰلك الصوم إنه سفر روحي إلى أفنان الجلال والكمال، إنه تخفف من الأحمال الأرضية، والأثقال الدنيوية، والشهوات المادية، إنَّه هجرة بالروح في ملكوت الواحد الأحد، وتنقل بالوجدان في مراتع الطاعة ومغاني العبادة، ومراقي الكمال، إنَّه غياب عن الملهيات والمغريات والملذات، وهجر لها جميعًا، طمعًا في القرب من الحبيب المنتظر، وأملاً في الفوز باللقاء المرتقب في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، لذٰلك لا عجب من أولئك العظماء العلماء الأولياء أن يفسروا السياحة بالصيام، نظرًا منهم إلى هٰذا الترابط الوثيق، والسر الدقيق، فلا شكَّ أنَّ الصوم سياحة؛ وأي سياحة!!

تفسير السياحة بالمعنى الحقيقي:

واختيارنا لتفسير كلمة السياحة بمعناها الحقيقي، وهو السير في الأرض، ورد في كلام عددٍ من العلماء والمفسرين قديمًا وحديثًا ما يؤيده

وينصره، بل إنَّ بعض العلماء أنكر تفسير السائحين بالصائمين ، ورأى عدم الضرورة للجوء إلى ذٰلك لاعتبارات كثيرة سنذكرها في حينها.

ومن أبرز العلماء الذين اختاروا تفسير السائحين بمعناها الحقيقي المتعارف عليه ما يلي:

١ـ الإمام الطاهر بن عاشور في تفسيره:

حيث قال: ﴿والسائحون﴾: مشتق من السياحة، وهي السير في الأرض، والمراد به سير خاص محمود شرعًا، وهو السفر الذي فيه قربة لله وامتثال لأمره، مثل سفر الهجرة من دار الكفر، أو السفر للحج، أو السفر للجهاد. [تفسيرالتحرير والتنوير ١٠/ ٤١].

٢ـ الإمام عبدالرّحمن بن ناصر السعدي:

يقول: ﴿السائحون﴾: فسرت السياحة بالصيام أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أنَّ المراد بالسياحة، السفر في القربات كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب ونحو ذٰلك. [تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٣٠٤].

٣ـ العلامة محمّد جمال الدين القاسمي:

يقول: «ذهب كثير من المفسرين إلى أنَّ المراد من سائحات: صائمات أو مهاجرات، وقد قدمنا في سورة التوبة في تفسير السائحون: أنَّ الحق فيه هو المعنى الحقيقي لعدم ما يمنع منه، ولا يصار إلى المجاز إلاَّ لمانع. [تفسيرالقاسمي ٩/ ٢٢٤].

وقد أورد القاسمي في تفسيره لـ﴿سائحات﴾ كلامًا نسبه لأحد المحققين، وفيه رد على تفسير السائحين بالصائمين، حيث يقول: ولذا

قال بعض المحققين: إنَّه يستفاد من هذه الآية مشروعية السياحة للنساء، كما هي كذلك للرجال، فمعنى قوله تعالى: ﴿سائحات﴾ مسافرات سواء كان السفر لهجرة أو اعتبار أو اطلاع على آثار الأمم البائدة، وقد خصصت السنة عموم سفرهن بكونه مع زوج أو محرم لهنَّ، حفظًا لهن، ثم قال: كأنَّ الذي دعا البعض لتفسير السائحات بالصائمات، أو بخصوص المهاجرات، تصوره أنَّ السياحة في البلاد لا تناسب طبيعة النساء المأمورات بالحجاب، وكأنه يفهم من الحجاب أنه الحبس المؤبد، أو كأنَّ الهواء نعمة مخصوصة بغير النساء، أو كأنهن لم يخلقن إلاَّ لسجون البيوت التي ربما تكون أنكى من أعمق سجون الجناة، أو كأنهن لم يخلق لهنَّ من هذه الدنيا الرحيبة سوى بيت واحد!!

وأما قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، فكأنَّه مخصوص بالرجل، أو كأنَّ الآيات الآمرة بالسير للنظر والعبرة والإحاطة والخبرة نازلة من السماء ليس للأمة جميعًا، بل للنصف منها، وهو الرجال، وحاشا أن يكون ذٰلك، أين هديه في سفره مع أزواجه؟ فقد كان يقرع بينهن، فأيتهن خرجت قرعتها خرج بها، وسافرت معه، وقد صار ذٰلك شريعة معمولاً بها في الدين، وهٰكذا صحَّ أنَّه لما قدم بصفية أردفها خلفه وهو مع الركب. [محاسن التأويل ١٦/ ٢٢٤].

٤ـ الأستاذ محمَّد رشيد رضا:

يقول السائحون في الأرض لغرض صحيح من علم أو عمل كالجهاد في سبيل الله، وروي عن عطاء: وللهجرة حيث تشرع الهجرة.

وروي عن عبدالرَّحمن بن زيد قال: ﴿السائحون﴾ هم المهاجرون، ليس في أمة محمَّد سياحة إلاَّ الهجرة، أو لطلب العلم النافع

للسائح في دينه أو دنياه، أو النافع لقومه وأمته.

وروي عن عكرمة وخصه بعضهم بطلب الحديث؛ لأنهم كانوا يسافرون من مصر إلى آخر للرواية، أو للنظر في خلق الله وأحوال الشعوب والأمم للاعتبار والاستبصار ومعرفة سنن الله تعالى وحكمه وآياته، وهـٰذا ما تدل عليه الآيات المتعددة في الحث على السير في الأرض. [تفسير المنار ١١/ ٢٥].

٥ـ الأستاذ سيد قطب:

يقول: ﴿السائحون﴾ وتختلف الروايات فيهم، فمنها ما يقول: إنَّهم المهاجرون، ومنها ما يقول: إنَّهم المجاهدون، ومنها ما يقول: إنَّهم المتنقلون في طلب العلم، ومنهم من يقول: إنَّهم الصائمون، ونحن نميل إلى اعتبارهم المتفكرين في خلق الله وسننه، ممن قيل في أمثالهم في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ فهـٰذه الصفة أليق هنا بالجو بعد التوبة والعبادة والحمد، فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر في ملكوت الله على هذا النحو الذي ينتهي بالإنابة إلى الله، وإدراك حكمته في خلقه، وإدراك الحق الذي يقوم عليه الخلق، لا للاكتفاء بهـٰذا الإدراك وإنفاق العمر في مجرد التأمل والاعتبار، ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذٰلك على أساس هذا الإدراك. [في ظلال القرآن ٣/ ٧١٩].

ونحن هنا لم نورد كل هذه الآراء لمجرد التأكيد على التفسير الذي اخترناه، فهو ليس بحاجة إلى كل هذا، ولكن حرصت على إيراد أقوال المفسرين لما في كثير منها من فائدة وطرافة.

من لطائف المفسرين في السياحة

١ ـ القاسمي:

لقد أتى بعض المفسرين في هٰذا المعنى بفوائد كثيرة، ولطائف مثيرة، ومن أولٰئك الإمام القاسمي، حيث أورد كلامًا جميلاً نسبه لأحد المحققين، فيقول: «وقد رأيت لبعض المحققين مقالة في تأييده ـ أي في تأييد المعنى الحقيقي للسياحة ـ يجدر بالمحقق أن يقف عليها، وهاك خلاصتها:

قال: الكتاب الحكمي يأمر الإنسان كثيرًا بأن يضحي قسمًا من حياته في السياحة والتسيار لأجل اكتشاف الآثار، والوقوف على أخبار الأمم البائدة، ليكون ذٰلك مثال عظة واعتبار، يضرب على أدمغة الجامدين بيد من حديد، ولا أريد أن أحشر للقارىء تلك الآيات، فإنَّ ذٰلك يؤدي إلى التطويل، بل أريد أن أجتزئ منها بما يكفل ثبوت الدعوى، وذٰلك في قوله تعالى: ﴿السائحون﴾، ولم يقع لفظ سائحون في القرآن الكريم إلاَّ هذه المرة الفذة، ومع ذٰلك فقد تغلب عليها أهل التفسير، فمنهم من قال: هم الصائمون، ومنهم من قال غيره، والصحيح فيها، هٰذه المادة تشعر بالانتشار، يقال: ساح الماء أي جرى وانتشر، والسيح أيضًا: الماء الجاري الذاهب بالأرض، ويطلق السائح على معنى يضاد الجامد، وهو المائع المسفوح، لأنَّه بانمياعه ينتشر في وعائه، وقد عهدنا بألفاظ القرآن أنها يجب حملها على ظواهرها وعلى معانيها الحقيقية، اللَّهم ما لم يمنع مانع عقلي، ولا مانع هنا من إرادة الحقيقة،

وعليه فيجب حمل لفظ السائحون على معناه الظاهر الحقيقي، وهو السائرون الذاهبون في الديار، لأجل الوقوف على الآثار، توصلاً للعظة بها والاعتبار ولغير ذٰلك من الفوائد التي عرفها التاريخ، وكذٰلك عهدنا بالمعنى المجازي أنه لا تجوز إرادته إلاَّ عند قيام القرينة على منع المعنى الحقيقي، في حال أنَّ الأمر هنا بالعكس، لكثرة القرائن التي تطالب بإرادة المعنى الحقيقي، دون المجازي، وذٰلك مثل آية ﴿سِيرُواْ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ ﴿فَسِيرُواْ﴾، ﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ﴾، ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهٰذه الآيات هي قرائن نيِّرة تؤذن بأنَّ السيح معناه السير، فإنَّها وإن تكن من مادة أخرى، إلاَّ أنَّ معناها يلاقي معنى السيح، على أننا لا نعدم قرينة على ذٰلك من المادة نفسها، وذٰلك كآية: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فكلمة ﴿سيحوا﴾ هنا تفسر ﴿السائحون﴾، وهم يقولون: خير ما فسَّرته بالوارد، وبالجملة، فصرف هذا اللَّفظ عن ظاهره تكسيل للأمة، وتدبير على فتور همتها، وضعف نشاطها، وحيلولة بينها وبين سعادة الإحاطة بآثار الأمم البائدة، ورؤية عمران المسكونة، الأمر الذي هو الآن الضالة المنشودة عند الغربيين، وفيه ستر لنور الكتاب الذي هو أول مرشد للعالم، ألا يألو جهدًا في السير والسياحة، وأن ينقب في البلاد أي تنقيب، وسيأتي تتمة لهذا في تفسير آية ﴿سائحات﴾ في سورة التحريم إن شاء الله. [محاسن التفسير ٨/ ٣٣٦].

وإليك كلام القاسمي الذي يقصده في سورة التحريم، وقد عزاه أيضًا إلى بعض المحققين، يقول: وبالجملة فالسياحة في القرآن الكريم ليست ترمي إلى غاية واحدة، بل إلى عدَّة غايات وفوائد:

أولاً: إدراك المعقولات، والإحاطة بعظات المسموعات، كما

نتعلمه من آية: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

ثانيًا: الوقوف على أحوال الأمم البائدة، وما لهم من جليل الآثار الداعية للاعتبار، كما نتعلمه من قول الكتاب الحكيم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

ثالثًا: البحث والتنقيب في أنحاء المسكونة بالنظر في الكون، وفي الفنون، للوصول إلى معرفة مبدع هذا العالم تعالى، كما يحثنا الكتاب الكريم على تسنم هذا المرتقى العالي بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾.

رابعًا: الحصول على ربح التجارة، كما نتعلم ذٰلك من قول الكتاب الكريم: ﴿يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾.

فهل ترى هذه الفوائد ذات البال مختصة بالرَّجل دون الأنثى، حتى يكون السير خاصًا بالرَّجل؟ كلا! وقد امتنَّ الله على أهل سبأ بما حكاه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ وامتنَّ على جميع عباده بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وقال تعالى: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾، فهل يجوز أن نذهب إلى أنَّ هذه المنن هي من مخصوصات الرجال دون النساء؟ كلا! بل الكل مغمور بمحاسن هذه المنَّات، كما هو مقتضى عموم الآيات. [محاسن التأويل ١٦/ ٢٢٥].

٢ـ الإمام محمّد رشيد رضا:

وهـٰذه فائدة أخرى من روائع العلماء في السياحة والسفر، وهي للإمام محمَّد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ ذكرها في تفسيره، وذٰلك في نهاية سورة الأنعام، حين ذكر في ختامها الأصول العلمية في السورة، وهي واحد وعشرون أصلاً، والذي يهمنا منها، الأصل الثالث عشر والرابع عشر، فاستمع إلى ما قال، ويا لروعة ما قال:

الأصل الثالث عشر: السياحة والسير في الأرض، فاتنا أن نذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنه يدل بعمومه على وجوب السياحة، وإن جعل الزمخشري والبيضاوي الأمر فيه للإباحة، وإنما يجب بالقصد المنصوص في الآيات كما يأتي تفصيله في الأصل التالي لهـٰذا.

نعم إنَّ الخطاب في هذه الآية للمشركين المكذبين، وإنَّ الغرض منه الدلالة على مصداق الآية التي قبلها الناطقة بما حل من عقاب الله بالساخرين من الرسل والمستهزئين بهم من قبلهم، ولكن العبرة بعموم اللَّفظ دون السبب الخاص لنزوله والاحتجاج به.

وقد تكرر الأمر في الكتاب العزيز بالسير في الأرض والحث عليه، فمنه ماجاء في خطاب المشركين كآية الأنعام، ومثلها في النحل والنمل، والعنكبوت، ويوسف وفاطر، وغافر، ومنه ما جاء في خطاب المؤمنين كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ ومثلها في سورة الروم، ومنه ما يحتمل العموم والإطلاق، ويؤيد ذٰلك وصف المؤمنين والمؤمنات في القرآن بالسائحين، والسائحات، في سورتي التوبة والتحريم، وإن فسَّرها بعضهم فيهما بالصيام وهو تأويل بعيد، وكذا تخصيص سهم من مال

الزكاة لأبناء السبيل، وهم الرحالون الذين ينقطعون بالأسفار عن أوطانهم ومعاهد كسبهم حتى كأنَّ السبيل لكل منهم أبوه وأمه، لأنَّه لا يكاد يفارقه، وانظر أحكام السفر وفوائده في الأصل التالي:

الأصل الرابع عشر: النظر في أحوال الأمم وعواقب الأقوام التي كذبت الرسل في أثناء السير في أرضها، ورؤية آثارها، وسماع أخبارها.

وهٰذا النظر والاعتبار لا خلاف بين العلماء في وجوبه شرعًا، وكونه مطلوبًا لذاته، ومقصودًا من السياحة والسير في الأرض، وإنما اختلفوا في السفر نفسه إذا لم يقصد به ذٰلك.

فذهب بعضهم إلى إباحته كماتقدم، وبعضهم إلى وجوبه، والحق أنَّ القرآن قد بيَّن للسفر فوائدأخرى علل بها الأمر به والحث عليه، وأنَّ الأصل فيه الإباحة، وقد يكون واجبًا إذا كان لأمر واجب كالحج والجهاد الشرعي، والنظر والاعتبار الذي هو موضوع هذا الأصل من أصول فوائد سورة الأنعام، وقد يكون مندوبًا إذا كان لطلب التوسع في العلوم، وأما العلم الذي هو فرض عين فالسفر لطلبه إذا تعذر تحصيله بغيره يكون فرض عين، والسفر لطلب العلم الذي هو فرض كفاية، ومنه الفنون والصناعات التي يتوقف عليها حفظ البلاد وشؤون المعاش والصحة، تأثم الأمة كلها إذا لم يقم به من تحصل بهم كفاية الأمة والبلاد، وقد يكون محرَّمًا أو مكروهًا إذا قصد به عمل محرَّم أو مكروه، كالذين يسافرون لأجل الفسق.

وأجمع الآيات لتكميل النفس بالسفر من طريق الدراية المستفادة بالنظر والاكتشاف والاعتبار وطريق الرواية والتلقي عن أهل العلم والبصيرة، والاختبار قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

وقد نبهت آية آل عمران إلى أصل من أعظم أصول العلم التي تستفاد من السياحة واختبار أحوال الأمم، وهو العلم بسنن الله في شؤون البشر العامة المعبر عنه في هٰذا العصر بعلم الاجتماع، وهي قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

وقد نبهت آية العنكبوت إلى أصل آخر، وهو البحث فيما يتعلَّق ببدء الخلق من الآثار ليكون من فوائده قياس النشأة الآخرة على النشأة الأولى، وذٰلك قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾.

ونبهت الآية الأولى من آيتي سورة الروم إلى النظر في أحوال الأمم وآثارها الخاصة بالقوة الحربية وموارد الثروة الزراعية وسائر شؤون العمران، وكيف كان عاقبة ذٰلك وأسبابه، ليعلم أنَّ القوَّة والثروة لا تحول دون هلاك الأمة إذا استحقت ذٰلك بالظلم وكفر النعمة، وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ وهي خاصة بمسألة القوة، ولكنها جاءت بعد بيان سنة الله في الأوَّلين، وأنَّ سنن الله لا تبديل لها ولا تحويل، فهي ترشد بموقعها إلى البحث عن تلك السنن.

وفي معناها آيتا سورة غافر، وهما قوله تعالى: ﴿﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ فهما ترشدان إلى الاعتبار بقوة الأمم وآثارها في الأرض، فتزيد على ما قبلها الإرشاد إلى الاستفادة من صناعات الأوَّلين وطرق كسبهم والاعتبار بكونها لم تكن واقية لهم مع قوتهم الحربية من عذاب الله إياهم بذنوبهم وكفرهم.

وقد ذكرنا هذه الأمهات من أصول علوم الاجتماع والعمران على سبيل الاستطراد اختصارًا، وهو كاف لتذكير مسلمي هذا العصر بأنَّ القرآن قد أرشد البشر إلى جميع وسائل سعادة الأمم والأفراد في أمري المعاش والمعاد. [تفسير المنار ٨/ ٢٩٠].

السياحة في السنة:

وردت كلمة السياحة في بعض الأحاديث النبوية الشريفة، وما ورد منها فإنما أريد به المعنى الحقيقي لكلمة السياحة، وهذا يؤيد رأي من قال بأنَّ المقصود بالسياحة في القرآن الكريم معناها الحقيقي، ومما جاء من أحاديث نبوية عن المصطفى، وفيه كلمة السياحة ما يلي:

جاء في صحيح البخاري في باب الهجرة، فلما ابتلي المسلمون خرج أبوبكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة حتى بلغ بَرْكَ الغِمَاد لقِيَه ابن الدُّغُنَّة، وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبابكر؟ فقال: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. [البخاري ٣٩٠٥]

قال ابن حجر: حقيقة السياحة أن لا يقصد موضعًا بعينه يستقر فيه. [الفتح: ٧/ ٢٧٤].

وفي حديث أبي أمامة أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي بالسياحة قال النَّبي: «**إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عزَّ وجل**».

قال صاحب بذل المجهود في حل أبي داود: قال: يا رسول الله: ائذن لي بالسياحة، أراد مفارقة الأمصار، وسكنى البراري، وترك الجمعة والجماعات، قال النَّبي ﷺ: «**إنَّ سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عزَّ وجل**»، وإنما لم يأذن له لما فيه ترك تعلم العلم وترك الجهاد، وإنما دله على الجهاد؛ لأنَّ الجهاد في ذٰلك الزمان، ـ وكذا في أكثر الأزمان ـ ذروة سنام الإسلام وفيه كبتُ الكفر والضلال. [بذل المجهود ١١/ ٣٨٣]

وفي عون المعبود شرح سنن أبي داود: كأنَّ هذا السائل استأذن النَّبي في الذهاب قهرًا لنفسه بمفارقة المألوفات والمباحات واللذات، وترك الجمعة والجماعات، وتعليم العلم ونحوه، فرد عليه ذٰلك كما رد على عثمان بن مظعون في التبتل [عون المعبود ٧/ ١٣٣].

وفي الترمذي عن ابن عمر قال: كان النَّبي ﷺ إذا قفل من غزوة أو حج أو عمرة، فعلا فدفداً من الأرض أو شرفاً كبَّر ثلاثًا ثم قال: لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون سائحون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده [الترمذي كتاب الحج: ٩٥٠]

قال صاحب تحفة الأحوذي: ﴿سائحون﴾ أي سائرون لمطلوبنا ودائرون لمحبوبنا قاله القاري في المرقاة. [تحفة الأحوذي ٣/ ٦٢١].

وفي سنن النسائي في حديث طويل: فلما بعث الله النَّبي ﷺ لم يبق منهم إلاَّ قليلٌ، فانحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته، وصاحب الدير من ديره، فآمنوا به. [سنن النسائي ٨/ ٢٣٣].

قيل: السياحة هنا هي الضرب في الأرض تعبدًا لله، وهذا كان فيمن كان قبلنا كما هو ظاهر الحديث، وقد نهينا عن التعبد بمثل هذا لما فيه من تضييع الجماعات ونحوها.

من نفائس أقوال العلماء في السياحة والسفر

الإمام الغزالي رحمه الله:

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ في كتابه إحياء علوم الدين في أول حديثه عن السفر وآدابه: الحمدلله الذي فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر، واستخلص همهم لمشاهدة عجائب صنعه في الحضر و السفر، فأصبحوا راضين بمجاري القدر، منزهين قلوبهم عن التلفت إلى متنزهات البصر إلاَّ على سبيل الاعتبار بما يسبح في مسارح النظر، ومجاري الفكر، فاستوى عندهم البر والبحر، والسهل والوعر، والبدو والحضر، والصلاة على محمَّد سيد البشر، وعلى آله وصحبه المقتفين لآثاره في الأخلاق والسير وسلم كثيراً.

أما بعد:

فإنَّ السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه، والسفر سفران:

سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحاري والفلوات.

وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات.

وأشرف السفرين الباطن، فإنَّ الواقف على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد، لازم درجة القصور، وقانع بمرتبة النقص، ومستبدل بمتسع فضاءِ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ظلمة السجن، وضيق الحبس، ولقد صدق القائل:

ولم أر في عيوب النَّاس عيبًا كنقص القادرين على التمام

إلاَّ أنَّ هٰذا السفر لما كان مقتحمه في خطب خطير، لم يستغن فيه عن دليل وخفير، فاقتضى غموض السبيل، وفقد الخفير والدليل، وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل، اندرست مسالكه، فانقطع فيه الرفاق، وخلا عن الطائفين متنزهات الأنفس والملكوت والآفاق وإليه دعا الله سبحانه بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وعلى القعود عن هذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ وبقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ فمن يسَّر له هذا السفر: «أي سفر الفكر والقلب» لم يزل في سيره متنزهًا في جنة عرضها السموات والأرض، لا يضر فيه التزاحم والتوارد، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه، وتتضاعف ثمراته وفوائده؛ فغنائمه دائمة غير ممنوعة، وثمراته متزايدة غير مقطوعة إلاَّ إذا بدا للمسافر فترة في سفره، ووقفة في حركته فإنَّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، وإذا زاغوا أزاغ الله قلوبهم، وما الله بظلاَّم للعبيد، ولكنهم يظلمون أنفسهم، ومن لم يؤهل للجولان في هذا الميدان، والتطواف في متنزهات هذا البستان، ربما سافر بدنه في مدة مديدة فراسخ معدودة مغتنمًا بها تجارة للدنيا أو ذخيرة للآخرة، وكان له في سفره شروط وآداب، إن أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان، وإن واظب عليها لم يخل سفره من فوائد تلحقه بعمال الآخرة. وإنما السفر هو الذي يسفر عن أخلاق الرجال، وبه يخرج الله الخبء في السموات والأرض.

وإنما سمي السفر سفرًا لأنه يسفر عن الأخلاق، ولذلك قال عمر ـ رضي الله عنه ـ للذي زكى عنده بعض الشهود: هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم أخلاقه؟ فقال: لا، فقال: ما أراك تعرفه، وكان بشر يقول: يا معشر القرّاء سيحوا تطيبوا فإنَّ الماء إذا ساح طاب، وإذا طال مقامه في موضع تغير.

وبالجملة فإنَّ النفس في الوطن مع مواتاة الأسباب لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة، فإذا حملت وعثاء السفر وصرفت عن مألوفاتها المعتادة، وامتحنت بمشاق الغربة، انكشفت غوائلها، ووقع الوقوف على عيوبها، فيمكن الاشتغال بعلاجها.

وأما آيات الله في أرضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر، ففيها قطع متجاورات، وفيها الجبال والبراري والبحار، وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيء منها إلاَّ وهو شاهد لله بالوحدانية ومسبح له، وأما الجاحدون والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فإنهم لا يبصرون ولا يسمعون لأنَّهم عن السمع معزولون وعن آيات ربهم محجوبون: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ وما أريد بالسمع الظاهر فإنَّ الذين أريدوا به ما كانوا معزولين عنه، وإنما أريد به السمع الباطن، ولا يدرك بالسمع الظاهر إلاَّ الأصوات، ويشارك الإنسان فيه سائر الحيوانات، فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذي هو نطق وراء نطق المقال، وما من ذرَّة في السموات والأرض إلاَّ ولها أنواع شاهدات لله تعالى بالوحدانية هي توحيدها، وأنواع شاهدات لصانعها بالتقدّس هي تسبيحها ولكن لا يفقهون تسبيحها، لأنَّهم لم يسافروا من مضيق سمع

الظاهر إلى فضاء سمع الباطن، ومن ركاكة لسان المقال إلى فصاحة لسان الحال، ومن يسافر ليستقرئ هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلـهية على صفحات الجمادات لم يطل سفره بالبدن، بل يستفز في موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرَّات، فماله وللتردد في الفلوات ، وله غنية في ملكوت السموات؟ فالشمس والقمر والنجوم بأمره مسخرات، وهي إلى أبصار ذوي البصائر مسافرات في الشهر والسنة مرات، بل هي دائبة في الحركة على توالي الأوقات.

وقد قال بعض السلف: إنَّ الله تعالى قد وكلَّ بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطى كل واحد على قدر نيته، فمن كانت نيته الدنيا أعطي منها ونقص من آخرته أضعافه؛ وفرَّق عليه همه وكثر بالحرص والرغبة شغله، ومن كانت نيته الآخرة أعطي من البصيرة والحكمة والفطنة وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته، وجمع له همه، ودعت له الملائكة، واستغفرت له.

ثم ذكر الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ آدابًا للمسافر، ومنها:

الأول: أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة اللازمة لمن تلزمه نفقته، وبرد الودائع إن كانت عنده، ولا يأخذ لزاده إلاَّ الحلال الطيب، وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه.

قال ابن عمر ـ رضي اللهعنهما ـ من كرم الرَّجل طيب زاده في سفره، ولا بد في السفر من طيب الكلام، وإطعام الطعام، وإظهار مكارم الأخلاق في السفر، فإنَّه يخرج خبايا الباطن، ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر، وقد يصلح في الحضر من لا يصلح في السفر؛

ولذلك قيل: إذا أثنى على الرَّجل معاملوه في الحضر ورفقاؤه في السفر فلا تشكوا في صلاحه.

والسفر من أسباب الضجر، ومن أحسن خلقه في الضجر فهو الحسن الخلق، وإلاَّ فعند مساعدة الأمور على وفق الغرض قلما يظهر سوء الخلق.

وقد قيل: ثلاثة لا يلامون على الضجر:

الصائم والمريض والمسافر، وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكاري، ومعاونة الرفقة بكل ممكن، والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلاَّ بالإعانة بمركوب أو زاد أو توقف لأجله، وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ومطايبة في بعض الأوقات من غير فحش ولا معصية، ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه.

الثاني: أن يختار رفيقًا فلا يخرج وحده، فالرفيق ثم الطريق، وليكن رفيقه ممن يعينه على الدِّين فيذكره إذا نسي، ويعينه ويساعده إذا ذكر، فإنَّ المرء على دين خليله، ولا يعرف الرَّجل إلاَّ برفيقه، وقد نهى ﷺ عن أن يسافر الرَّجل وحده، وقال: «**الثلاثة نفر، وقال أيضًا: إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمروا أحدكم**»، وكانوا يفعلون ذلك ويقولون: هذا أميرنا أمره رسول الله ﷺ.

وليؤمروا أحسنهم أخلاقًا، وأرفقهم بالأصحاب، وأسرعهم إلى الإيثار وطلب الموافقة، وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطريق، ومصالح السفر، ولا نظام إلاَّ في الوحدة، ولا فساد إلاَّ في الكثرة، وإنما انتظم أمر العالم لأنَّ مدبر الكل واحد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ومهما كان المدبر واحدًا انتظم أمر التدبير،

وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور في الحضر والسفر، إلاَّ أنَّ مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام كأمير البلد، وأمير خاص، كرب الدار، وأما السفر فلا يتعيَّن له أمير إلاَّ بالتأمير، فلهـٰذا وجب التأمير ليجتمع شتات الآراء.

ثم على الأمير أن لا ينظر إلاَّ لمصلحة القوم، وأن يجعل نفسه وقاية لهم، كما نقل عن عبدالله المروزي أنه صحبه أبوعلي الرباطي فقال: على أن تكون أنت الأمير، أو أنا، فقال: بل أنت، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي علي على ظهره فأمطرت السماء ذات ليلة فقام عبدالله طول اللَّيل على رأس رفيقه وفي يده كساء يمنع عنه المطر، فكلما قال له عبدالله: لا تفعل، يقول: ألم تقل إنَّ الإمارة مسلمة لي؟ فلا تتحكم علي ولا ترجع عن قولك، حتى قال أبوعلي، وددتُ أني مت ولم أقل له أنت الأمير، فهـٰكذا ينبغي أن يكون الأمير.

الثالث: أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء، وليدع عندالوداع بدعاء رسول الله ﷺ.

قال بعضهم: صحبت عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ من مكة إلى المدينة حرسها الله، فلما أردت أن أفارقه شيَّعني، . وقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قال لقمان إنَّ الله تعالى إذا استودع شيئًا حفظه، وإني أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك. [إحياء علوم الدِّين ٢/ ٢٣٠]

وصايا للسُيّاح

الإجازة هي الوقت الذي يحلو فيه السفر، وتعذب فيه الرحلات ويجمل فيه المسير، وتلذ فيه السياحة، ولقد سبق لنا الحديث عن السفر، وبيان حاجة المرء إلى الترويح، ورغبة الإنسان في الترفيه، وسبق التذكير بخطورة السفر إلى البلدان الكافرة، أو الدول السافرة، وأنَّ الأهل والأبناء، والبنات أمانة عظيمة يجب المحافظة عليهم مما يخل بدينهم، ويشوش على أذهانهم، ويفسد أخلاقهم، أما السفر المحتشم، والرحلات المؤمنة الآمنة التي تروح عن النفس بما لا يضر دينها، وتبهج القلب بما لا يبغض خالقه، فهي أمر مطلوب، وعمل محمود.

ولكنني أحببْتُ في هذه العجالة أن أذكِّر نفسي وإخواني في الحل والترحال، والمكوث والانتقال ببعض الفوائد النافعة، والوصايا الماتعة، واللفتات الرائعة، إنها بعض الفوائد التي يجب أن يستفيدها المسافر في سفره، والمرتحل من رحلته.

الوصية الأولى: دعاء السفر:

لا تنس دعاء السفر، فهو دعاء عظيم، وحديث جميل، ينزل على القلب بردًا وسلامًا، ويضفي على النفس طمأنينة وهناء... إنه من كلام المصطفى ﷺ الذي يبهر النفس ببلاغته، ويطرب القلوب بروعته، إنه من الموجز المعجز، فهو على قصر ألفاظه، وقلة كلماته، جمع كل ما يهم المرء في دينه ودنياه، فهو دعاء بكل أبواب الحفظ والسعادة، واستعاذة من كل أسباب الشر والإخافة، وفيه من تسليم لأمر الله، والتوكل عليه،

والتفويض والانطراح على أعتابه، ما يجعل المرء يمضي في سياحته، وقد شعر بالبرد والسلام يخيم على قلبه، ويتربع في وجدانه.

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبَّر ثلاثًا، ثم قال: «**سبحان الَّذي سخَّر لنا هذا وما كنَّا له مقرنين، وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون، اللَّهمَّ إنَّا نسألك في سفرِنَا هذا البر والتَّقوى، ومن العملِ ما ترضى، اللَّهمَّ هوِّن علينا سفرنا هذا واطو عنَّا بُعده، اللَّهمَّ أنت الصَّاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللَّهمَّ إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظرب، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد**»

الوصية الثانية: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

يجب أن يكون المؤمن كالغيث الهنيء، أينما حل حلَّ الأنس والرضا والنماء، فإن لم يصل الأرض منه وابل فطل، المؤمن نور يضيء الطريق وهادٍ يهدي السبيل، وعبير يزكو شذاه، وفيض يعم نداه أينما ذهب، وحيثما انتقل، فهو يحمل قلبًا مؤمنًا، ونفسًا خيِّرة، وفكرًا نيِّرًا، وفؤادًا غيورًا، يأمر بالمعروف قدر طاقته، وينهى عن المنكر ما أمكنه، يغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذٰلك أضعف الإيمان، أما الذي ينطلق في الدنيا، ويسيح في الأرض، فيرى المنكرات العظيمة، والمعاصي الكبيرة، والمخالفات المتعددة، ثم لا قلب ينكر، ولا لسان ينطق، ولا وجه يتمعر، فأي مؤمن هذا.

صحَّ عنه ﷺ قوله: «**والَّذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهون**

عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله إن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم» [صحيح الجامع: ٧٠٧٠].

الوصية الثالثة: شكر النعم:

نعم الله كثيرة وآلاؤه كبيرة، وعطاؤه عظيم، وكرمه عميم: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤]

وإنَّ من أعظم النعم التي يجب أن يتذكرها المسافر ما أفاء الله على عباده من أسباب الراحة، ووسائل السفر، كان الآباء والأجداد يقطعون بعض المسافات في شهر أو أشهر مع ما يلحقهم من النصب ويعتريهم من التعب، ونقطعها نحن في ساعات معدودة، في جوٍّ آمن، وظل ظليل، وأكل لذيذ، وشراب سائغ، يحدثني بعض كبار السن في مخيَّم من مخيَّمات الحج، كان ينظر إلى ما يرفل فيه الحجاج من نعم، وما يهنؤون به من راحة، ثم دمعت عيناه، وأجهش بالبكاء، فسألته عن سبب بكائه، فقال: يا ولدي تذكرتُ حالنا في العصور الخالية، والأيام الماضية، ثم نظرتُ إلى ما نحن فيه اليوم، أذكر أنني في سنة من السنوات قدمت إلى مكة مع بعض رفقتي فمكثنا أيامًا طويلة ونحن نمشي على أقدامنا، فلما بقي بيننا وبين مكة مسيرة يوم تقريبًا، كدنا نهلك من الجوع، وكاد يقتلنا الظمأ، فأخذنا نتلمس الأخبار، ونتأمل في الديار لعلنا نجد ماء، أو نعثر على بئر فلم نجد شيئًا فمضينا نجتر الخُطَا، وقد كادت تزهق أرواحنا من الظمأ، فإذا بنا نرى الطير تحوم على مكان علمنا أنَّ فيه ماء، فلما أتيناه وجدنا بئرًا عميقة مخيفة مظلمة، تنبعث منها رائحة كريهة، فربطنا ما معنا من ملابس وأردية ربطناها بعضها ببعض في دلو معنا، وأنزلناه في البئر فلما نزعناه فإذا به ماء أسود كريه الرائحة، قد اختلط بالضفادع والهوام

والطين، والله لو رآه أهل هذا المخيم لانقلبت نفوسهم جميعًا ولكننا تسابقنا في شربه وكأنه الماء الزلال، فانظر اليوم إلى هـٰذا النعيم العظيم، فالحمدلله على نعمه، والشكر له على إحسانه وكرمه.

الوصية الرابعة: توثيق المودة.

لا تنسَ أخي المسافر صلة الأرحام، والسؤال عن الأقارب، وعيادة المرضى، والجود والإحسان إلى من تجده من الفقراء، وزيارة الإخوان في الله، الصلة والزيارة اللَّطيفة الخفيفة الهانئة المسعدة، ليست زيارة الإثقال والإرهاق والكلفة والعنت والمشقة، والأرحام من وصلهم وصله الله، ومن قطعهم قطعه الله.

والمريض من سافر لزيارته، وذهب لعيادته فله الأجر العظيم، يقول ﷺ: «**من عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله ناداه منادٍ أن طبتَ وطاب ممشاك، وتبوَّأت من الجنَّة منزلاً**» [صحيح الجامع: ٦٣٨٧]

والأخ الذي يزور أخاه في الله زيارة ليس وراءها منفعة، ولا يقصد بها مصلحة، وإنما هي المحبَّة في الله، فإنَّ الله تعالى يحبه كما أحبَّ أخاه في الله.

الوصية الخامسة: إدخال السرور على الأهل:

من أجمل ما يوصى به السائحون اصطحاب الأهل، والتنفيس عنهم، وطرد الملل والسآمة من نفوسهم، وليس هناك أجمل ولا أفضل ولا أمتع و لاأروع من الأب الذي يصطحب أفراد أسرته في نزهة بهية نقية تقية، يضاحكهم ويلاعبهم، ويسامرهم ويداعبهم، ويمازحهم ويلاطفهم ليدلوا بمشاركاتهم، ويهتفوا بأناشيدهم، ويلاطفوا بنكاتهم وممازحتهم، وهـٰكذا تعبر قاطرة السياحة في جو من الأنس، وفنون من الرضا، وألوان

من السرور. . . أما أن يظن الأب أنَّ السياحة مجرَّد أن يحمل أهله وأبناءه وينتقل بهم بين الجبال والأودية، والمدن والقرى، ثم هو معهم بجسمه مسافر بروحه، لا يعطيهم وجدانه ولا يعيرهم انتباهه، إما سارحًا بفكره وإما مشتغلاً بجواله، فتلك سياحة باهتة، ونزهة قاتمة. . أو أن يظن أنَّ إدخال السرور عليهم هو في المرور بهم على المطاعم، وملء بطونهم بأنواع الأرز واللحوم والدجاج!! إنَّهم بحاجة إلى ملء فراغهم، وإشباع عواطفهم، وإرواء مشاعرهم، وذٰلك كله في حبك لهم، واندماجك بهم، وإشراقك في وجوههم، وابتساماتك في طريقهم، شاركهم، لا عبهم، داعبهم، واملأ حياتهم بوجودك، كن حاضرًا في أفكارهم، في قلوبهم، في ضمائرهم، وإلاَّ تخطفتهم شياطين الإنس والجن من بين يديك.

إذا نزلت في مكان للعب فالعب معهم، لا أسعد و لا آنس لدى الأبناء من لعب والدهم معهم، سواء بالكرة أو غيرها. . . إذا دخلت مكانًا للترفيه أو للألعاب فلا تكتف بصرف التذاكر لهم ثم تعود أدراجك، أو تبقى في سيارتك، بل انزل معهم، وأشعرهم بوجودك، بتعاطفك، بانفعالك بألعابهم، صاحب الأولاد وعلمهم الرجولة، صادق البنات وعلمهن الحشمة، والله الله في البنات. . . واحرَّ قلباه على البنات، واحسرتاه على البنات، إنَّهن دائمًا المظلومات في الأسفار، في السياحة، في الألعاب، دائمًا الحظ والحظوة للأولاد، إنَّ البنات وبالذات من بعد سن العاشرة، تبدأ ألوان المرح والسرور تغلق في وجوههن، إلاَّ في بعض المتنزهات النسائية البحتة، وقليل ماهي؛ لأنَّهنَّ أصبحن في سن الحياء والخجل والحجاب وارتداء الجلابيب التي بلا شك فيها من التعب والمعاناة الشيء الكثير، ولكنه عين السرور والسلوة والسياحة في رياض

الجنة إن شاء الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ، ويمشين في ركاب الحشمة والوقار والطهر والنضار، ثم هن سيجتنين ثمرة ذٰلك في جنان الخلد، ويكشف لهن من أفنان النعيم وألوان السرور ما ينسي عناء الدنيا ووصب الحياة.

لو طلب من أحد الرجال أو الشباب أن يغطي وجهه، ويلتف في عباءة لمدة ساعتين لاختنق، ولخرج من ملابسه، فكيف بمن تمر بهن الساعات الطوال في هذه الحال، ولكن الله جلَّ وعلا يجعلها سهلة يسيرة للمؤمنات الصادقات.

وأعود مرَّة أخرى إلى البنات. . . إنَّني رجل لديَّ أبناء وبنات، فيا ألله كم يتمزق قلبي، وتدمع عيني، وأنا أرى الأولاد يهنؤون بالألعاب، ويتسابقون إلى فنون الملاهي، والبنات محرومات من ذٰلك كله، بل يبقين لساعات طوال لمجرد انتظار انتهاء الأولاد من ألعابهم، لذٰلك يجب أن نعوض البنات عمَّا يمكن أن يشعرن بالحرمان منه، فنبتكر لهن من صفوف التسالي والترفيه والألعاب ما يناسب طبيعتهن وحشمتهن، وعدم اختلاطهن بالرجال والشباب.

ويجب أن نلتفت لهن لفتة حنان وعطف، وحب وشفقة، وأن نعدل بينهن وبين الأولاد، فإذا ما صرفت على الأولاد مائتي ريال أو ثلاثمائة أو أكثر، أو أقلَّ، فيجب أن تسترضي البنات بمثلها إما بإعطائهن في أيديهن، وإما بشراء ما تتوق له أنفسهن من أنواع الحلي والملابس والزينة، فالتمس ولو خاتمًا من ذهب.

إنَّ كثيرًا من الآباء يصرف وقت السياحة وأموالها للأولاد في فنون الألعاب، والملاهي والكُرات وغيرها، أما البنات فلا يُعيرهن أدنى

اهتمام، وكأنَّه كتب عليهنَّ الحرمان، إنها مسائل نفسية هامة وخطيرة.

إنَّ العناية بالبنات والاهتمام بهنَّ يجب أن لا يقل عن العناية بالأبناء الذكور، إن لم يكن أضعافها؛ لأنَّ البنات من السهولة اللَّعب بعواطفهنَّ، والتحايل على مشاعرهن، إذا تركن للإهمال، وهمشن من العناية، إنَّ الأولاد يتاح لهم فرص كثيرة لا يتيسر للبنات مثلها، كاصطحابهم للمساجد، والولائم، والنوادي، والمتاجر... وغيرها، لذلك أرى أنه من العدل أن تُخصص للبنات أوقات للتنزه بهن، أو الترويح عنهن، مع الآباء بمفردهن دون صحبة الأولاد كي يشعرن بقيمتهن واحترامهن، حتى ولو كان لمسافات قصيرة، أو أمكنة قريبة، وأن لا يحشرن دائمًا في زمرة الأولاد، إضافة لما يتاح للأولاد من متنفسات كثيرة، علمًا أنَّ بعض البنات قد يطرح فيهنَّ من البركة أضعاف ما يكون للأولاد، ولا شكَّ أنَّهنَّ أكثر حبًّا للوالدين وأكثر شفقة وأكثر رحمة، وأكثر رقة وعطفًا وامتثالاً وطاعة.

إننا بحاجة إلى ترميم حبال المودة، وتقوية جسور المحبة مع أبنائنا وبناتنا ونسائنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

رسائل المحبين

قبل وسائل الاتصال الحديثة التي أنعم الله بها على الناس كانت الرسالة فيما مضى هي البلسم الذي يلطف حرقة المغتربين، وهي الأمل الذي يبرق في دُجىٰ المحبين، وهي السلوة للمحزونين، ومع هذه الوسائل فليس عن الرسائل بدائل. إن الرسالة لها طعمها الخاص ومذاقها المتميز، ووقعها الفريد، كان الغائب عن أهله وأحبته يترقب في لهفة وشوق رسالةً تأتيه من محبيه، وكتاباً يصله من أهله وذويه، فإذا ما وقعت في يده رسالةٌ طار بها فرحاً، وقبلها جذلاً وحيّاها قائلاً: إني لأجد ريح أحبيتي لولا أن تفندون. فالرسالة دليل على دوام المحبة واستمرار المودة، وتأكيد العهد، وتجديد الولاء، وترسيخ الحب.

الغائب عن أحبته يترقب أخبارهم ورسائلهم مع كل صباح طالع، وضياء شارق، ونجم طارق، فإذا ما ظفر منهم بكتاب، أو حصل على خطاب، فإنه يقرؤه وخيالهم يرتسم أمامه على صفحاته، ويلهج بعباراته، ونغماتهم تداعب سمعه، يتلمس ريحهم في ثناياه، ويجد طيفهم في حروفه.

فاللفظ يقرب فهمه في بعده ... منا ويبعد نيله في قربه
فكأنها والسمع معقود بها ... شخص الحبيب بدا لعين محبه

قال أحد المحبين حينما وقعت رسالة أحبابه في يده:

وافى الكتابُ فأوْجَبَ الشُّكرا ... فَضَمَمْتُـهُ وَلَثَمْتُـهُ عَشْـرَا
وفَضَضْتُـهُ وَقَـرَأْتُـهُ فـإذا ... أغْلَى كِتَابٍ فِي الوَرَى يُقْرا
فمَحَاهُ دَمْعِي مِنْ تَحَدُّرِهِ ... شَوْقاً إلَيْكَ فَلَمْ يَدَعْ سَطْرا

وانظر إلى روعة ما قال الآخر:

لمَّا وضَعْتُ صحيفَتِي ... في بطن كفِّ رَسُولِهَا
قَبَّلْتُهَـــا لِتَمَسَّهَـــا ... يُمْنَاكَ عِنْدَ وُصُولِهَا
وتَوَدُّ عَيْنِي أنّها اقْـ ... ـتَرَنَتْ ببَعْضِ فُصُولِهَا
حَتَّى تَرَىٰ في وجهك الـ ... ـمَيْمُونِ غَايَةَ سُؤْلِهَا

وقال الآخر:

ورَدَ الكتـابُ مبشـراً ... نفسي بأنواع السُّرورِ
وفضضتـه فـوجـدتـه ... ليلاً على صفحات نورِ
مثل السوالف والخُدو ... د البيـض زينـت بـالشفـورِ
أنــزلتُــه منــي بمنـ ... ـزلة القلوب من الصدورِ

وقالت التنوخي يصف مكتوباً أتاه من أحبته:

وصحيفـة ألفـاظهـا ... في النظم كالدُّرِّ النثيرِ
جاءت إليَّ كأنها التـو ... فيقُ في كل الأمورِ
بأرق من شكوى وأحـ ... ـسن من حياة في سرورِ
لو قابلت أعمى لأصبـ ... ـح وهو ذو طرف بصيرِ
وكأنها أملٌ تحقق بعـ ... ـد يأس في الصدورِ
أو كالفقيد إذا أتت ... بقدمه بُشْرَى البشيرِ
أو كـالمنـام لسـاهـر ... أو كالغنى عند الفقيرِ
أو كالشفاء لمدنِف ... أو كالأمان لمستجيرِ
وكأنما هي من وصا ... ل أو شباب أو نشورِ
لفـظ كـأسـر معـانـد ... أو مثل إطلاق الأسيرِ

وكـأنـه إذ لاح مـن فوق المهارق والسُّطورِ
وردُ الخدود إذا انتقلـ ـت به على راح الثغورِ
غررٌ عدَت وكأنها من طلعة الظبي الغريرِ
من كل معنى كالسلا مة أو كتيسير العسيرِ

من أخبار المسافرين (٦)

المتنبي يسافر إلى شيراز

هذا المسافر الذي سنذكر خبر إحدى رحلاته هو مسافرٌ شهير ونابغةٌ خطير، وشاعر قدير أشهر من أن يعرّف به، وأعظم من أن يترجم له، إنه شاعر العربية العملاق أبوالطيب المتنبي.

ورحلات أبي الطيب كثيرة، وسفراته عديدة، ولكننا سنختار منها هذه الرحلة لأن القصيدة التي قالها فيها من أجمل قصائده بل من أجمل الشعر العربي على الإطلاق، وهي من آخر قصائده، وقد قالها في أحد الوزراء الذين كان لهم شأن كبير وتسابق إليهم الشعراء، وخطب ودَّهم الخطباء والبلغاء، ويقال إن المتنبي قتل أثناء عودته من هذه الرحلة فهي خاتمة رحلاته ونهاية حياته، وكان ذلك في شعبان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

سافر شاعرنا العملاق ـ رحمه الله ـ إلى «عضد الدولة» أبي شجاع فنّاخسرو بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بُوَيْه الديلمي. وقد قصَدَه فحول الشعراء في عصره، ومدحوه بعدة مدائح، وكان ممن سافر إليه وألقى الشعر بين يديه أبوالطيب المتنبي. ترنّم بمدحه بعدة قصائد، وبالغ في شعره مبالغات مذمومة ولكن القصيدة الرائعة التي سنذكرها هي التي قالها حينما أراد أن يودّع عضد الدولة ويرجع إلى بلده، فإليك جملة من أبياتها:

فدىً لك مَنْ يقصِّر عن مَدَاكا ... فـلا مَلِـكٌ إذن إلاَّ فـداكـا
أروح وقد ختمتَ على فؤادي ... بحبِّك أن يحُلّ به سواكا
وقد حَمَّلتني شكْراً طويلاً ... ثقيلاً لا أطيقُ به حراكا

أُحاذِر أن يشق على المطايا فلا تمشي بنا إلاَّ سواكا
لعــلّ الله يجعلــه رحيــلاً يُعين على الإقامة في ذراكا
ولو أني استطعت غَضضتُ طرفي فلم أبصر به حتى أراكا
أرى أَسَفي وما سرنا بعيداً فكيف إذا غدا السيرُ ابتراكا
إذا التَّوديعُ أعرض قال قلبي عليك الصمت لا صاحبتُ فاكا
ولـولا أن أكثـر مـا تمنّـى معـاودةٌ لقلـت ولا مُنَـاكـا
قد استشفيتَ من داءٍ بداءٍ وأقتلُ ما أعلَّك ما شفاكا
وفي الأحباب مختصٌ بوجْدٍ وآخرُ يدّعي معه اشتراكا
إذا اشتبهت دموعٌ في خُدودٍ تبين مَنْ بكى مِمّن تباكي
فزُلْ يا بعد عن أيدي ركابٍ لها وقع الأسنة في حشاكا
وأيّا شئت يا طُرُقي فكوني أذاةً أو نجـاةً أو هـلاكـا
ومن أعتاض عنك إذا افترقنا وكُلُّ الناس زورٌ ما خلاكا
وما أنا غيرُ سهمٍ في هواءٍ يعود ولم يجدْ فيه امتساكا
حييٌّ من إلـهي أن يراني وقد فارقت دارك واصطفاكا

* * *

وفي أثناء عودة المتنبي من سَفْرته هذه قتل في الطريق فلم تغنِ عنه تلك المدائح شيئاً وأفضى إلى ملك الملوك سبحانه وتعالى فالله يغفر لنا وله ولجميع المسلمين.